مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 06 العدد: 01- (2022) ص204/ 213

# الحكايات الشعبية للأطفال بين الحفاظ على الموروث ونمطية ترسيخ القيم

# The Children's folk tale between preserving the heritage and stereotyping the consolidation of values

إسماعيل سعدي*

المركز الجامعي سي الحواس بريكة ( الجزائر)

smailsaadi@cu-barika.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/09/12
تاريخ القبول:
2021/10/17

**الكلمات المفتاحية:**
- ✓ الحكاية النّمطيّة
- ✓ القيّم، الموروث
- ✓ قصص الأطفال

الملخّص:

سعى البحث إلى تحليل بعض الحكايات الشّعبيّة الموّجهة للأطفال التي استلهمها الكّتاب من مرويات شفهية قصد الحفاظ على تراث الأمّة؛ لكنّهم في المقابل وقعوا –دون قصد- في شرك النّمطيّة، فكرّروا نقل القيّم بالطّريقة ذاتها الّتي ساقها الأجداد لأبنائهم في القرون السّابقة، غير آبهين بتطوّر الفكر، فحملوا إهانة لفكر القارئ الصغير من خلال سطحيّة المعاني و ترسيخ بعض القيّم و الأعراف الباليّة، كسلب حقّ المرأة مثلا أو التّرويج للعنف.

*Article info*

*Received*
*12/09/2021*
*Accepted*
*17/10/2021*

**Keywords:**
- ✓ *toryValues*
- ✓ *Inheritance children's story*

*Abstract :*

*The research aimes to analyze some folk tales directed to children that inspired mainly by the oral narrations, highlighting one the attempt of some Algerian writers to convey the tales of grandmothers to children in an effort to preserve the nation's heritage, but on the other hand, we find some amateurs falling in the trap of stereotypes and repeating the transmission of values in the same way, that had been mentioned by the grandparents in the previous centuries. They were not aware about the development of thought, so that unintentionally they carried an insult to the thought of the young reader through superficial meanings, and the consolidation of some outdated values and customs, such as taking away the rights of women, and promoting to the violence*

د، إسماعيل سعدي

*- المؤلف المرسل

**مقدمة:**

إنّ التراث هو كلّ ما خلّفه الأجداد للآباء والأحفاد، وهو مادّي ومعنوي، تشترك الإنسانية قاطبة في جزء منه، وتختصّ كلّ أمّة بما يخدم أيديولوجيتها ومخطّطاتها، ويحفظ مقوّمات هويتها، ومسألة الالتفات إلى التراث مطلب وجودي لكلّ مجتمع يتوق إلى الانخراط في عصر العولمة، وفي عصر الفتوحات العلمية، والإبداعات الاجتماعية والثقافية الباهرة، التي تحمل معها مشروع بلورة القيم وتعميمها على باقي الإنسانية بمختلف وسائط التوصيل والتبليغ.

ومن خلال هذا الطرح، وانطلاقا من محاولة الحفاظ على هوية الطفل الجزائري، وانتمائه لوطنه، وخشيةً من انصرافه عن تراثه الثقافي، استلهم الكتّاب التراث ووظّفوه في قصص الأطفال. وهنا تُطرح الإشكالية الآتية هل كان التوظيف يتوافق مع ما يتوق إليه كلّ مربّ أو وليّ يسعى إلى تنمية القدرات الذهنية لأبنائه وترسيخ القيم التي تطمح إليها الإنسانية الرشيدة ؛ القيم السّامية النبيلة التي تصنع مجتمعا متآخيا وتطفئ نار الحروب ، وتجعل الحياة آمنة سعيدة؟ .

قبل الإجابة عن الإشكالية وما يحيط بها من أسئلة فرعية حريٌّ بنا أن نقف على معنى الحكاية الشعبية وأهميتها في تنشئة الأجيال ؛ الحكاية الشعبية هي واجهة الشعوب ومرآتها، وهي الكلام المكتوب الذي ينقل أدق سمات وخصائص المجتمع، فهي لوحة ناطقة يرى فيها الطفل ثقافات متعدّدة، استلهمها الكتّاب من متونٍ مدوّنة، ومرويات شفهية تشكّل موروثهم الثقافي؛ لكن إزاء هذا المعنى يجد الباحث أنّ تبسيط الحكايات الشعبية للأطفال ليس مجرّد تسلية للأطفال أو إشباع رغبة فقط، أو تزجية للوقت بل هي عمل مؤسّس و مقصود هدفه الأساس الوقوف في وجه التيّارات الغربية الزاحفة تحت مسمى العولمة ؛ ولهذا فإنّ معمارية تقديم التراث للأطفال يشي عن معمارية العقل الكامن فيه، يؤسّس لنظرة مستقبلية، وأبعاد تقبع خلف السطور والخطأ في تقديم التراث عن طريق السرد الحكائي الممتع غير مسموح به ، لأنّه – وببساطة- لا يمكن للمجتمع التخلّص من الأخطاء التربوية إذا علقت بتلافيف الذاكرة.

إنّ المجتمع الجزائري اليوم كباقي المجتمعات العربية في حاجة ماسّة إلى تنشئة الأجيال القادمة على القيم العامة للمجتمع في ظل هاته المتغيّرات التي يشهدها العالم برمّته، والتي تتزاحم فيها القيم المختلفة والمتناقضة أحيانا، وتتصارع فيها مدارس ترغب كلّ منها في توجيه الطفل إلى ما يخدم أفكارها ومناهجها، وتحت غطاء بريق الحضارة الغربية المهيمنة على العالم تمكّن الغرب من تصدير موروثه الثقافي عبر وسائط متعدّدة، وبتقنيات عالية، أثّرت تأثيرا كبيرا في عادات وسلوكات الشباب الجزائري في جميع الميادين السياسية، والاجتماعية، والفكرية، وأضحت دلالاتها واضحة للعيان، فتقديم قارورة النبيذ في القصة المترجمة ( ذات القبعة الحمراء)[1] ليس خطأ مطبعيا ولا عجزا في الترجمة ؛ بل إنّها عمل مقصود و المغلوب مولع بتقليد الغالب؛ و بهكذا ترجمات يحلّ موروث الآخر وتأخذ قيمنا المتوارثة طريقها إلى الزوال، وتضيع الهوية في ظل صراع الثقافات، وهيمنة ثقافة الآخر، وتغادر كثير من ملامح الهوية جسدَ الذات، لتنخرط فيما يسميه أدونيس( بالهوية المتحرّكة)[2]؛ لكن هل نغلق على أنفسنا باب ترجمة القصص الوافدة إلينا من الآخر الغربي ؟

إنّ مسؤولية كتابة قصص الأطفال تضطلع بوظائف كبرى في عمليات التنمية الثقافية، والاجتماعية من خلال التفاعل الإيجابي بين التراث المحلّي والوافد الأجنبي، وأقول التفاعل الإيجابي؛ حتّى لا أقع في دائرة الانغلاق، ويتسرّى إلى النّفس ذلك الهوس والخوف من ذوبان الشخصية، فينجرّ عنه الانغلاق على النّفس، والتقوقع حول التراث، وتفويت الفرص للاستفادة من خبرات الآخرين وتراثهم بحجّة ما يصطلح عليه بالهيومانية* ، وهنا يقع المربّون وأولياء الأمور بين مطرقة ترجمة التراث الوافد وبين تبسيط تراث الأجداد للأطفال ، وقبل أن نسترسل في الطرح علينا أن نتعرّف على الهوية الثقافية التي يخشى المربّون من ضياعها .

**الهوية الثقافية** : هي اللّحمة التاريخية الروحية والفكرية التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد، وهي الخلفية الحضارية المتينة التي تستند إليها الشعوب كلّما أرادت أن تراجع ماضيها، وتستشرف حاضرها ومستقبلها،" والتراث الشعبي أحد القنوات الرئيسة التي تشكّل ملامح المجتمع وتحدّد هويته الثقافية حيث تمدّ أفراده بالعوامل التي تعمل على تماسكه واستقراره وبلورة شخصيته" [3] ومن العوامل المقصودة؛ القيم المتّفق عليها والتي تحمل مرجعيات دينية واجتماعية تعبّر عمّا في الأشياء من حبّ و خير وجمال وصواب.

ومن خلال هذا الطرح، وانطلاقا من محاولة الحفاظ على هوية الطفل الجزائري، وانتمائه لوطنه، وخشيةً من انصرافه عن تراثه الثقافي، استلهم الكتّاب التراث ووظفوه في قصص الأطفال.

**أولا- دلالة العتبات النصية:**

يبدو أنّ كلّ عمل أدبي مكتوب -يسعى إلى تحقيق الأدبية- يُعنى بمكوّنات نصّية، وأخرى فنّية، ترتبط الأولى بطبيعة النصّ وعوامل تكوينه الشكلي الداخلية والخارجية، أمّا الجانب الثاني فيرتبط بالتقنيات المتعلّقة بخلق عناصر فنّية تعطي العمل الأدبي أكثر خصوصية، وأعتقد أنّ قصص الأطفال لا تشذّ عن هذا المعنى، فهي تتكون من مكونات نصّية داخلية، تُعنى بالنصّ الموجّه للأطفال، ومكوّنات نصّية خارجية تعنى بالعنوان والغلاف، وهو ما يصطلح عليه أيضا بعتبات النصّ.

لعل أوّل ما يثير انتباه القارئ الصغير وهو يقتني قصّته غلافُها الخارجي، من حيث جمالُ الإخراج، "ولكي يكون الكتاب ناجحا من حيث الشكل، يجب أن يخاطب الطفل بما يتناسب مع عمره وتفكيره وخصائصه وقدراته في مرحلة النموّ التي قدّم بها له في إطار فنّي جميل... تشارك فيه الحواس الخمسة"[4]، ويُقصد بالخطاب هنا، خطاب الصورة والعنوان، والألوان، وحتّى حجم القصّة، فالفئة العمرية الأولى تفضّل حجما أكبر لقصصها بينما تختار الفئة المتوسّطة والأخيرة قصّة متوسّطة الحجم[5]، ومن خلال هذا الطرح ندرك أنّ واجهة الحكايات التراثية يكون لها سبق الاقتناء من طرف أطفالنا إن هي نافست القصص الأجنبية التي تصل إلى المكتبات في أحسن حلّة، سواء من حيث سمك الغلاف أو بهرجته بالألوان المحبّبة لقلوب الأطفال والمستغلّة من طرف الآخر لأسر عقول الناشئة وقراءة مضامين قد لا تتوافق وتوجّهات مجتمعنا .

**1- العنوان وعلاقته بالتراث:**

العنوان والعنونة هي: "السمة والإشارة، يقال عنونه، أي وسمه، وأشار إليه"[6] وهو في الاصطلاح الأدبي:" مقطع لغوي أقلّ من جملة يمثّل نصا ،أو عملا فنّيا"[7]، يرمز للنصّ أو يعطي الفكرة العامة له، وقد يجعله بعض المؤلفين عنوانا مستفزّا للمتلقي.

و العنوان علامة دالة، تحظى بأهمية إستراتيجية في الدراسات الحديثة، لها وقع كبير في نفسية الطفل باعتباره المتلقي الأوّل للنصّ؛ ولهذا تنبّه الكتّاب إلى العنوان، فتفنّنوا في تقديمه للصغير لإغرائه بالقراءة، فهو بمثابة الرأس الذي يُعرف به الجسد، وهو نصّ مكثّف ومختزل يعتبره (جاك فونتالي-**Jaques Fontanille**) "من الأقسام النادرة في النصّ التي تظهر مع الغلاف، وهو نصّ موازله"[8]، وللعنوان مرجعية خاصّة تحيل إلى فكرة عامة للنص، يستطيع الطفل تمييز القصّة الدينية من التاريخية أو الشعبية، أو يحيله إلى شخصية معروفة تعطي ملمحا أوّليا لهدف القصّة، وقد يكون العنوان تمويهيا ليس له صلة بالنص.

إنّ العنوان في القصص الموجّهة للطفل يحمل أكثر من وظيفة، فالمنظّرون يتفقون على أنّ للعنوان وظائف هي[9]:

- وظيفة تسمية (**Fonction Appellative**)
- وظيفة مرجعية أو دلالية (**Fonction Référentielle Ou Désignative**)
- وظيفة إيحائية أو إشهارية (**Fonction Conative Ou Publcitair**)

في القصص الشعبية ورد في سلسلة (كان يا مكان)*- مثلا- العناوين الآتية: (لحنش لبرش)، (عاصفة آكلي)، (الذئب والماعز)، (بلعجوط وشجرة التين)، (الخيّر والأصدقاء) (حديدوان ويما جيدا)، (الخنفساء)، (بومسامر)، (سيدي فليح)، (مسلمون) (بنت الهمّ)، (طاش طاش غربال)، كُتبت كلّها بخط كبير يختلف لونه عن لون الخلفية ليشدّ انتباه الأطفال؛ وفي القصّة الموجّهة للطفل في هذه المرحلة يجب أن يكون العنوان-حسب الدارسين- واضحا قريبا من إدراك المتلقي، يعطي فكرة عامة للقصّة، أو -على الأقل- يمهّد للنصّ مثل عنوان قصّة (الخيّر والأصدقاء) الذي يتضافر مع صورة الغلاف، فيعطي ملمحا يجعل الطفل ينسج قصّة موازية من وحي الخيال قبل أن يتصفح قصّته الجديدة.

تحيل بعض العناوين على جملة من الوحدات الأيقونية المعروفة لدى المجتمع الجزائري، وتنهض بوظيفة التحفيز النصّي لإنتاج نصوص موازية، فاسم (حديدوان) مثلا، يحمل أكثر من دلالة منها: الفكاهة والذكاء والحيلة، وربّما الخفّة والرشاقة، وإذا اقترن باسم الغولة فإنّه يحمل معنى الصراع والعداوة والانتقام. أما عنوان الذئب والعنزة فيحيل إلى عداوة قديمة بين مخادع محتال ومسالمة تحاول توفير الأمن لأبنائها. ويحمل العنوان وظيفة مرجعية يستطيع الطفل من خلالها أن يحلّ شِفرة النص قبل أن يتصفّح قصّته، خاصّة إذا كانت صورة الغلاف الخارجي تشي عن فكرة عامة للقصّة، كما هو الشأن في قصّة (بنت الهمّ)، فكلمة الهمّ معروفة ومتداولة بين عامّة الناس، تقرع سمع المتلقي إذا سبقتها كلمة(بنت)، فتحيل إلى أنثى تلاحقها الهموم، فتترجمها صورة الغلاف التي تظهر حذق الفنّان الذي استطاع أن يجعل تواشجا بين العنوان والصورة، فظهرت المرأة في حالة خوف وهلع، فارّةً من خطر يداهمها فيتشكل في ذهن الطفل ملمحا عاطفيا يدفعه لأخذ فكرة مسبقة حول القصّة ؛ لكن يبدو أنّ الأمر أخطر مما سبقت الإشارة إليه فأغلب العناوين السابقة تشي إلى ثلاثية خطيرة ( خوف، عنف، قهر ) أمّا الخوف فيقترن باسم الثعبان في( لحنش لبرش ) وباسم الذئب في ( العنزة والذئب) وأمّا العنف فيقترن باسم حديدوان وكيف استطاع أن يقتل الغولة وأما القهر فواضح من العنوان في حياة المرأة التي خُلقت لتشقى حسب الحكايات والخرافات التي كان الناس يتناقلونها كابرا عن كابر تحمل حصائل نظراتهم إلى الحياة وتجاربهم اليومية المحدودة، ولو أنّهم استغلوّا التراث لزرع ثقة العربي بنفسه لكانت الثلاثية السابقة الذكر مقبولة إلى حدّ ما ، فبدل أن تترسّخ قوّة الإنسان الغربي وهيمنته على العالم في عقول الناشئة مثلما استطاعت السينما الامريكية تصويره وتسويقه للعالم بأنّ الرجل الامريكي المهيمن والمسيطر على الفكر العالمي بجبروته وقسوته من خلال الأفلام الحربية التي نقلت جذاذات فكرية تحمل رسائل متعدّدة الأشكال مُفادها أن الرجل الأحمر سيّد العالم.

**2- صورة الغلاف وتأثيرها على المتلقي:**

الصورة هي جوهر الفنون بما تنتجه من لغة ذات قوّة تعبيرية، تنقل الكثير من الدلالات والرموز والإيحاءات التي يُعبَّر عنها في الكتب بعشرات الصفحات، وهي في أدب الطفل- بالإضافة إلى أنّها وسيلة إيضاح وإبراز للمعنى- هي ذات أهمية كبيرة في تنمية الإبداع وسعة الخيال، وهي أيضا، تخاطب العين وتغازل النظر، إمّا من جهة إتحافها وإمتاعها، أو من جهة إغرائها في سبيل الاستهلاك[10]، إلاّ أنّ الحرّية الكبيرة التي أُتيحت للفنّان في رسم بعض واجهات الكتب والقصص هي -في الحقيقة- مسؤولية عظيمة، إذ تمثّل الجزء الأكبر من هذا الأدب الخطير.

إنّ الصورة توفّر قطاعا واسعا من المتلقّين على اختلاف مشاربهم، وتباين أعمارهم، يقرؤها الصغير والكبير، الأميّ والمتعلّم، وهي أكثر رسوخا بالذاكرة، خاصّة مع التطوّر السريع للصورة الرقمية التي تجعل المحسوس أكثر حسّية، وأكثر لمسا مع تباين الألوان وتمازجها. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل كانت اللّغة البصرية في القصص التي وظّفت التراث على قدر من المسؤولية، وعلى وعي من حاجات الطفل الفنّية والتربوية؟ وما علاقة الصورة بالتراث، وهل للّون سمة دالة متوارثة عبر الأجيال؟

تعود جذور القصص المصوّرة إلى عمق التاريخ، وطفولة العقل الذي وجد في الرسومات على جدران الكهوف تعبيرا عن الأحاسيس والمشاعر والعواطف، ويعدّ القرن الثامن عشر زمن ولادة القصص المصوّرة، متّخذة أبعادا سياسية واجتماعية، لكنها لم تصل إلى البعد الرمزي إلاّ في بداية القرن التاسع عشر؛ حيث ظهرت أوّل قصّة مصوّرة للأطفال في سنة 1820م في نيويورك[11]، ولهذا فإنّ الرسم على واجهات قصص الأطفال هو ميراث إنساني، ونصّ مُوازٍ لازم قصص السّخرية والتهكّم، وقصص الرعب، والفضاء والمخلوقات العجيبة، "وكان حضور عنصر الفكاهة والتشويق والإغراء البصري مثيرا لاستجابة حواس الطفل البصرية، وعواطفه ومشاعره"[12]، والأطفال اليوم إن لم يجدوا في قصصهم صورا انصرفوا عنها.

لا شكّ أنّ العصر هو عصر الصورة بكلّ المقاييس، فقد هيمنت على المُشاهد، وأصبحت الصورة المصدر الأساس في نقل الثقافة؛ نظرا لما تحمله من سرعة التبليغ، فهي تنقل المُشاهد في لحظات إلى عمق الحدث، وتختزل بذلك مجهودات كبيرة لنقل تفاصيل أحداث معينة تتطلّب تحليل الموقف، وإعادة ترتيبه، ومن ثم نقله في عبارات تطول أو تقصر.

وفي قصص الأطفال تشتغل الصورة والرسم على بعدين أساسيين: "المستوى الإخباري: وهو مستوى الاتصال أو التواصل مابين المرسل والمرسل إليه أو المتلقي، والثاني المستوى الرمزي الإيقوني، وهو المستوى الدلالي والمعرفي الذي يمثل القصد الأساس من إرسال خطاب الصورة"[13]، وتتداخل الأبعاد المعرفية والفلسفية والسياقية بين الصورة والأيقونة، فالصورة لها مرجعيات أدبية وفنّية، والأثر الذي تتركه الصورة يبقى راسخا في الذهن، أمّا الرسوم الأيقونية فتوحي إلى أشياء غير طبيعية، ومجهولة حاول الفنّانون تجاوزها برسومهم وصورهم، بعيدا عن الانضباط والمقاييس الدقيقة للرسم.

ترصد الصورة الواقع الثقافي للمجتمع، وتنقلها إلى المتلقين الصغار، وانطلاقا من نظرية الغرس الثقافي[14] تُحدث قناعات جديدة لدى الأطفال، أو تثبّت تصوّرات وترسّخ قيم المجتمع السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية في نفوسهم،

وفي القصص التراثية الموجّهة للطفل يلفى الباحث أنّ الرسّام -الذي يعدّ مؤلفا ثانيا- قدّم ملامح الشخصية الجزائرية بصورة جليّة شملت تقاسيم الوجه وسمرته، والملابس الجزائرية المتنوّعة بتنوّع وتعدّد الثقافات والطبوع، ف(أكلي) بلباسه القبائلي وقبّعته التي يضعها على رأسه يختلف عن ابن السهوب ببرنسه وعمامته وهي صور اختزلت على المتلقي الصغير نصوصا طويلة تعرّفه بطبوع وسمات الرجل الجزائري عبر التراب الوطني وعكست له صورة حيّة لمضمون القصّة بعيدا عن ضغط اللغة التي تستوجب تركيزا كبيرا لفكّ معاني النصّ ؛ لكنّها في المقابل -في اعتقادي- قد أسهمت في إدخال شيء من القيم غير المقبولة في مجتمعنا الحالي ومنها –مثلا- ذلك القهر الذي تعانيه المرأة من السلطة الذكورية وقد قدّمها الفنّان في حالة سلبية فارّة من قهر الرجل يستطيع الطفل الصغير ترجمتها ببساطة من خلال انعكاس حركة الريح على وشاحها وشعرها .

**- اللّون وعلاقته بتوظيف التراث في القصص:**

يبدو أنّ الدلالات الرمزية العامة للألوان تختلف من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر، وترتبط هذه الدلالات ارتباطا وثيقا بالمعتقدات وبالثقافات والعادات والتقاليد والوسط الاجتماعي، فاللّون الأخضر في المخيال الشعبي الجزائري هو لون الجنّة، والأحمر هو لون النّار، والأسود يدلّ على الحزن، والأبيض على الفرح، بينما في " موزمبيق مثلا يعبّر اللّون الأسود عن الفرح... كما يرمز اللّون الأحمر لدى الغربيين إلى الشياطين والأرواح الشرّيرة"[15].

وفي قصص الأطفال في الجزائر سلكت ريشة الفنّان سبيلين في استعمال الألوان فمنها ما عكست تمفصلات أحداث النصّ، فكانت الصورة مثلما عبّر عنها (ج.دولوز-**G.Deleuze**) بالقول: "هي مختبر الفكر، فيه تعمل الأفكار وتختمر، إنّه بمثابة الأفكار والمفاهيم"[16]، لقد رافقت الألوان القاتمة الأحزان، فجاءت واجهة قصّة (اليتيمان والبقرة)، مثلا، لتعطي مفاتيح قرائية، إذ أحاط السواد باليتيمين وسط كهف مظلم، لكنّ الفنّان جعل وسط هذا الظلام دائرة انبعث منها نور القمر فعكس لونا محبّبا للأطفال هو اللّون الأخضر للأشجار والنبات، وكأني به يبعث الأمل في نفسية المشاهد الصغير، ليقول له: إنّ بَطَلَي القصّة سينتصران على الشرّ ويبدّدان ظلمته، ويعيشان حياة سعيدة ملؤها الحبّ والحنان، وهي فعلا نهاية الحكاية الشعبية

الجزائرية الموسومة( ببقرة اليتامى)، التي تناقلتها الألسن والأقلام بعناوين مختلفة، لكنّها حملت نفس المعنى، فتغلّب اليتيمان على حياة البؤس والشقاء، وعاشا حياة سعيدة في قصر الملك مكرّمين، بينما عاشت زوجة أبيهما وابنتها مسعودة منبوذتين[17].

ويرافق اللّون الأبيض لون السلام من خلال الحمامة البيضاء، ولون الثلج، فكما يستشعر الطفل برودة الثلج من خلال المثير اللّوني، والوصف الحكائي، فتُحفّز مخيّلته اللّونية والمكانية والزمانية، وتتكون لديه أنساق تُكوّن منظومته المعرفية، وتتشكّل لديه أيضا نظرة يربطها بواقعه حول السلام والحرّية، " فتتجلّى الألوان الزاهية مع مجيء الفرح كالتحرّر والانتصار"[18]، ويرى المتلقي الصغير تحوّل اللّون من أسود قاتم في بداية القصّة إلى ألوان البهجة والسرور في نهايتها، فتكتسي الطبيعة لونا أخضرا، وتظهر البسمة على وجوه أبطال القصّة، فيشاركهم الطفل فرحتهم ويحلّق فرحا مع الفراشات والطيور معلنين تخلّصهم من الأحزان[19].

لا تكاد قصّة موجّهة للأطفال تخلو من ألوان ثلاثة، هي الأحمر، والأزرق والأخضر، وهي ألوان لها دلالات نفسية مؤثّرة، فالأزرق هو لون السماء، وهو السموّ والعمق، وهو في البحر راحة وبرودة وارتواء، ولقد أثبتت الدراسات النفسية أنّ الأزرق يبعث على الهدوء والتفاؤل، أمّا الأخضر فلم يكن عند البدو العرب أجمل وأحبّ منه إلى نفوسهم، فهو رمز الخصب والعطاء، "وهو في الصورة إذا ازداد برودة وتدرّجا نحو اللّون الأزرق ظهر دوره في استدعاء السكينة والهدوء والحكمة، وإذا ازداد حرارة وتدرّجا نحو اللّون الأصفر يظهر أثره في تحفيز الحيوية، ومشاعر التفاؤل والدفء"[20]، فالقطار الذي يلعب به الطفل أخضر، والكنز الذي يبحث عنه بطل قصّته أخضر، وكُرته خضراء، وقد ثبت دلالة كلّ من اللونين الأخضر والأبيض عبر الزمن " حيث يدلّ اللّون الأبيض على السعادة والفرح، بينما يدلّ اللّون الأخضر على الشباب والحيوية والنماء"[21]، لكن يبدو أنّ شباب اليوم أضحوا مقلّدين للغرب في كلّ شيء حتّى الألوان، تبعا للألوان التي ينتقيها اللاعبون المشهورون، أو المغنّون العالميون.

أمّا السبيل الثاني الذي ذهبت إليه دور النشر هو اعتماد البهرجة والقشورية والسطحية على حساب القصدية، فإذا كانت بعض القصص قد احترمت أذواق الأطفال، واستعملت التدرّج اللّوني من أجل إيصال فكرة معيّنة، فإنّ كثيرا من القصص كانت لغرض تجاري بحت، وبدا لَيُّ لغةِ الألوان واضحا، حيث غابت الألوان الموحية، وتصدّرت بهرجة الألوان واجهات القصص من أجل ضمان أكبر عدد من نقاط البيع على تراب الوطن و وقعت -دون قصد- في شرك ترسيخ القيم غير المرغوبة أيضا فانتشار اللون الأحمر مثلا في صور القصص يشي بالعنف ، و إظهار الفنّان لصورة الغولة في أبشع منظر ، و إبراز أنياب الذئب وهو يفتك بالعنزة المسالمة تغرس –دون شك- صورة العنف في نفسية الأطفال .

**السيطرة الذكورية في الحكايات الشعبية:**

ومن الصور السوداوية التي حملتها الحكايات الشعبية الصورة الانهزامية للمرأة ممثّلة في قصّة (بنت الهمّ)؛ حيث حافظت الكاتبة على نفس النسق الذي تواترت به الحكاية؛ فبَطَلتها إنسانة ضعيفة الشخصية، وسيلتها الوحيدة هي الهروب من الواقع المعيش، ومحاولة جعل حدّ لحياتها، حيث كانت في كلّ مرة تقول للغول:"اقتلني ولكن حاجة الناس لا تقترب منها"[22]، وبعد أن ضاق بها الأمر ذرعا لجأت إلى مخاطبة سكّين الغدر قائلة:" يا سكّين الغدر اغدر بي وأرحني من هذه الحياة التعيسة"[23]، وهو تشجيع للانتحار، وتكريس للروح الانهزامية اليائسة، وإلحاق صورة الضعف بالمرأة في جلّ القصص التراثية الموجّهة للأطفال، وهو ما يفسّر معاناة المرأة عبر الزمن لويلات السيطرة الذكورية، نقلتها الراويات عن طريق العقل اللاواعي.

كما يظهر صراع من نوع آخر في القصص الشعبية خاصة، ليس بين الجنسين، بل بين الجنس الواحد، هو صراع بين الحماة وبين الكنّة، وبين اليتيمة وبين الربيبة وأمّها، وهو ما تناقلته القصص سواء الشعبية الجزائرية، أو العالمية مثلما نقلته قصّة(ساندريلا) وتحوّل نعمة الهناء والسعادة إلى حياة ملؤها المتاعب والآلام بسبب زوجة الأب التي حوّلت الفتاة من فتاة آمرة ناهية إلى خادمة تتعرّض إلى الإهانة والإذلال[24]، ومعظم القصص مازالت تحتفظ بنفس النسق، وتقدّمه بنفس الرواية

التراثية، والشيء اللافت للانتباه أيضا ترسيخ صورة زوجة الأب بأنّها امرأة سيئة للغاية ، لا همّ لها إلا معاقبة اليتامى وحرمانهم من الأكل واستغلالهم لخدمة البيت وهي صفة ليست في كل الأحوال صادقة وحبّذا لو تناولها الكتّاب بشيء من الإنصاف ، وأسبغوا القصص بحنان المرأة حتى لا ينشأ الفتية على مقت زوجة الأب وتداول هذه الصفات المسيئة التي ورثها المجتمع .

**4- صورة الحاكم في الحكايات الشعبية للأطفال .**

مفهوم السلطة: في كلّ مجتمع تقاليد يتم من خلالها معرفة كيفية اتخاذ القرار وتنفيذه، ومن خلال توظيف التراث يبدو أنّ معظم القصص التي استلهمت التراث بكلّ أنواعه تعزى فيه السلطة للحاكم وحده دون استشارة وزرائه أو نوّابه، وتكون الشدّة والغلظة واضحة من أجل إخضاع الرعية لحكمه، أو استعمال الدهاء للتحكّم في زمام الأمور.

الأمثلة كثيرة في قصص الأطفال التي غلب عليها أنسنة الحيوانات ورُمز للحاكم بالأسد وللرعية بباقي الحيوانات، ومنها ما ورد في قصّة (الأسد والثور الأبيض): إذ وجد الأسد معارضة قويّة من الثيران الثلاثة، ومنعوه من اعتلاء العرش، لكنّ دهاءه السياسي جعله يفرّق صحبتهم فقال:" سأصاحبها وأصير رابعها، ثم ألازمها ملازمة الظلّ، بعد ذلك أسعى بالغيبة والنميمة حتّى أزرع العداوة والبغضاء بينها، فيتشتّت شملها"[25]، والقصّة بقدر ما تحمله من تشويق ومغامرة، فإنّها تمرّر بعض القيم الخاطئة في المجتمع.

كما وردت في القصص طريقة أخرى للسيطرة على الرعيّة هي طريقة المكافأة أو الهدية، لخلق التنافس من أجل التقرّب من السلطان، يحكى في قديم الزمان أنّ سلطانا اشتهى أكل لحم الطير "فنادى مناد لجمع الناس، فاجتمع خلق كثير، أتوا من كلّ حدب وصوب، فصعد السلطان منبرا وقال: أيّها الناس، من يأتيني بطير أعده بمكافأة يختارها بنفسه، وليطلب ما يشاء"[26]، والقصّة تحمل تفرّدا في الحكم، وتبديدا للمال العام وصرفه فيما لا يخدم قضايا الأمّة.

كما وردت بعض العبارات التي تشي عن جبروت الحكّام وزرعهم للخوف وسط الرعيّة من أجل البقاء على سدّة الحكم ومن بين العبارات المنتشرة في القصص: "إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله"[27]، وعبارة أخرى وردت في ولائم الملوك والأمراء تهين الرعية وتجعلهم أهون من العبيد ومنها: " من زاد لقمة أمرت بضرب عنقه"، وفي كلّ الحالات تظهر الرعية مغلوبة على أمرها، تستجدي الصدقات وتبيح لنفسها كلّ الطرق المشروعة وغير المشروعة للحصول على القوت.

**ثالثا- منظومة القيم في قصص الأطفال:**

إنّ قراءة متأنّية في مضامين القصص التي وظّفت التراث يدرك ببساطة أنّ الجانب القيمي هو من الأبعاد الأساسية في هذه النصوص، والإنسانية الرشيدة تطمح للمحافظة على هذه القيم في المجتمع، فهي سبيل إلى تحقيق الأمن والاستقرار، والتعايش بين بني البشر، وهدف هذا الجدول هو تتبع تحقق بعض القيم التي يسعى إلى تحقيقها الأدب كرسالة تربوية تهتم بالجانب الإنساني، والكشف عن بعض القيم غير الإيجابية التي جاءت عرضا ولها تأثير كبير على نفسية المتلقي.

| عنوان القصّة | القيم النبيلة | قيم غير مرغوب فيها |
|---|---|---|
| الملك سيف وكتاب النيل | -شجاعة ذي يزن<br>تدريب الأطفال على الفروسية<br>عبادة الله. | -العرب عديمو العقل والأدب<br>- إغراء النجاشي لذي يزن بامرأة جميلة.<br>- الغيرة والقتل الهجر بوادي الموت |
| سندريلا | الجمال، الهناء والسعادة<br>البهجة بزواج سندريلا | تحوّل حياة سندريلا إلى آلام ومتاعب-<br>الإذلال، الاستهزاء، التواكل والاعتماد على السحرة لإنقاذ البطلة. |

| | | |
|---|---|---|
| السلطان شمشون | الشجاعة والقوّة، الخوف من الله، دعاء الله بالنجاة من الوحوش، إنقاذ جميلة من الأسد ، الاستئذان ردّ الجميل من طرف جميلة | الحسد، المكر، الربط بالحبل والسجن، الغدر. ظلم الملك ومحاولة قتله لشمشون- خضوع وخنوع. |
| القبّرة والفيل | تعاون الطيور لكفّ الفيل عن ظلم القبّرة | الظلم (داس الفيل بيت القبّرة) والإصرار على الظلم. |
| الأرنب والأسد | الرأي والحيلة قبل القوّة غرس الثقة في النفس | ظلم ملك الغابة لباقي الحيوانات، الاعتداد بالقوّة. |
| الأسد وابن آوى[1] | ابن آوى رمز الفطنة والدهاء. استخدام العقل لمصارعة الظالمين الأقوياء. | الحمار رمز البلادة والحماقة الأسد رمز الأنانية وحبّ الذات. |
| الرجل الذي سلك مفازة | إنقاذ أهل القرية للغريق | التهوّر( مواجهة الوحوش الضارية)، سرقة اللصوص للتاجر ومحاولة قتله. |
| بطّة السلطان والرجل الفقير | الكرم، الاعتراف بالخطأ استشارة الحكماء، الإحسان. | الرياء والتظاهر بالكرم وسرقة بطة السلطان، توريث الخوف من الحكام. |

إنّ القصص التي وظّفت التراث العربي، سعت إلى تمجيد بطولات مشاهير العرب والمسلمين، ومنهم مثلا: عنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، والظاهر بيبرس، والأميرة ذات الهمّة هي وجه من وجوه المقاومة، وبعث الأمل من جديد في نفسية الطفل العربي الذي أرهقه إذلال الغرب للعرب، وأذهله التطوّر المستمرّ للغرب في كلّ الميادين، ويحزّ في نفسه أن يرى العرب يراوحون مكانهم. فمثل هذه الصور التي اختارها الكتّاب من التراث لها أكثر من بعد:

- تُصوّر بطولات الحكّام العرب والمسلمين، وترصد سيرهم المضيئة ووتبرز مكانتهم الحضارية بين الأمم عبر التاريخ.
- تعنى بالقيم الأخلاقية التي كان يتحلّى بها الأبطال، دون الجمع بين صفتين متناقضتين.
- تذكي روح الاعتزاز بالآباء والأجداد في بعد نفسي يُشعر المتلقي الصغير بثقة في نفسه، وتحمله على تبنّي الصفات الحميدة، والبطولات المجيدة والاقتداء بها[28].

إلاّ أنّ بعض القيم السلبية المنثورة بين طيّات القصص، والتي لا يقيم الكتّاب لها وزنا، فلها-في اعتقادي- عظيم الأثر على نفسية المتلقي، فسرقة الأعرابي لبطّة السلطان من أجل إكرام ضيفه هي -في الحقيقة- دعوة لاتخاذ كلّ السبل -حتّى وإن كانت مرفوضة من طرف المجتمع- من أجل إكرام الضيف، وهنا تظهر دسيسة المقولة التي مُفادها: (الغاية تبرّر الوسيلة) والتي تتنافى مع عقيدة المسلم. والأطفال "إذا اندمجوا تماما مع قصصهم فإنّهم يتقمصون شخصية البطل أو شخصية آخر... وقصص البطولة تتخذ أشكالا مختلفة ولكنّها جميعا تنطوي على القوّة المجرّدة أو الشّجاعة الحقّة أو الذكاء أو المجازفة"[29]، ولهذا يتعيّن التثبّت من نقل المفيد المختلف عمّا يعرض في شاشات التلفزيون.

يطرح كاتب القصّة فكرة معيّنة للمعالجة، لكنّ القيم تأتي تباعا؛ ولهذا حبّذا لو توضع القيم في الميزان، فقد يقصد الكاتب ترسيخ قيمة أخلاقية؛ لكنّه دون أن يشعر فينشر الكثير من القيم غير المرغوبة، فتتأصّل في الطفل، ويصعب

1

استئصالها في الكبر، ومنها مثلا: تسمية الكذب بالدهاء والذكاء والحيلة من أجل الفوز بمكافأة الملك، أو الظفر بالزواج من الحسناء.

وما يؤرّق المتلقي هو تلك النهايات الأليمة التي يختم بها الكتّاب قصصهم، فـ(حديدوان) لم يحاور (يمّا جيدا) ووقام بقتلها[30]، وآكلي لا يدري بأي ذنب قتل[31]، و(قورايا) المرأة الرّمز يُبقر بطنها بصورة وحشية، وينتزع منه الجنين[32]؟ وكثير من النهايات التي تحيل القارئ إلى أسئلة تبقى معلّقة لا يعثر لها عن إجابة.

خاتمة

إذا كان الأدب بوجه عام هو" الكاشف الحافظ للقيم الثابتة في الإنسان والأمّة"[33]، فإنّ أدب الأطفال عامّة، والقصّة على وجه الخصوص رسالة ترفد القيم في كلّ ثناياها وفي كلّ خيط من خيوط نسيجها، فتتضمّن القصص قيما أخلاقية هي من صميم ديننا الحنيف، أو من القيم الإنسانية المتوارثة لا يمكن رصدها جميعا، بل يمكن الوقوف عند بعضها لأهميتها في التنشئة الحقّة للأطفال، كقيمة التعاون التي لقيت اهتماما كبيرا في القصص المستلهمة من التراث، وقدّم أكثرها على ألسنة الحيوانات لقربها من المتلقي الصّغير، وفي قوالب سردية تعتمد على الوصف الدقيق، والحوار المشوّق، وتسلسل الأحداث التي تنمو متصاعدة نحو الذروة، ثم تبدأ بإعطاء الحلول تدريجيا بما يتلاءم مع المرحلة العمرية للطفل إلاّ أنّه للأسف وقفنا على عشوائية وارتجالية في تقديم التراث الشعبي للأطفال ومعها يأتي تشويه للقيم الإنسانية الرشيدة وتأتي إهانة طفل القرن الواحد والعشرين الذي يحلّ أعسر المشكلات الحاسوبية في وقت نبقى نحن الكبار فاغري الأفواه تجاهها ، فنحاول عبثا أن نقنعه بأنّ الماء ينقل في الغربال، وبأن علكة على ظهر حمار حديدوان تجعله يسقط فريسة للغولة . ولهذا نرى أنّه بات من الضروري أن نرفع سقف لغة مخاطبة طفل اليوم ونقدّم له خيالا علميا بدل سذاجة لا تُسمن ولا تغني من جوع ، كما على الفنّان أن يختار الرسومات التي تبعث الأمل في نفوس أبنائنا الذين أثقلت كواهلهم الصور المأساوية من مختلف وسائل التواصل والإعلام .

ثبت قائمة المراجع:

[1] الأخوان غريم ،2012 ، روائع القصص العالمية، ترجمة مروة عبد الفتاح شحاتة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ، ص15

[2] ينظر: أحمد شراك،2004، سوسيولوجيا التراكم الثقافي، الرباط، المركز الوطني للإبداع المسرحي والسينمائي، ص6، 7.

* الهيومانية: التأسيس للمعرفة والقيمة والغاية والأخلاق في غياب مرجعية دينية.

[3] مرفت حسن برعي ،2008، تنشئة الطفل العربي، التراث والانتماء، مصر، دار المعرفة الجامعية، ص11.

[4] إيمان البقاعي (د.ت) ، المتقن في أدب الأطفال والشباب،بيروت، دار الراتب الجامعية ، ص11.

[5] ينظر: أحمد نجيب،1983، فن الكتابة للأطفال، بيروت، دار اقرأ ، ص126

* ينظر: مثلا، مسعودة لعريط،2003، قصص الأطفال في الجزائر، ص18، وعائشة يوسف رمّاش،2012، شعرية العنوان في القصص الموجّهة إلى الطفل، مجلة جامعة دمشق، مجلّد 28، ع2، ، ص240.

[6] ابن منظور: لسان العرب، مادة (عني)، 447/9.

[7] هادي نهر: 2011، دراسات في الأدب والنّقد، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، ص13.

[8] Josep besa camprubi, les fonctions du titres, nouveaux actes sémiotique, 82 ,2002 ,pulim, université de limoges,p:05.

[9] Maurice Delcroix et autres: Méthodes du texte, introduction aux études littéraires, Duculot,1987.p202.

[10] ينظر:عبد العالي معزوز، 2014 ، فلسفة الصورة-الصورة بين الفنّ والتواصل- المغرب، إفريقيا الشرق، ص5 .

[11] ينظر: محمود خليف الحياني،2017، سيميائية الصورة البصرية في قصص الأطفال الإستراتيجية والتكنيك، عمّان، الأردن، ط1، ، ص48

[12] نفسه: ص49.

[13] عبد القادر عمّيش:2012، قصّة الطفل في الجزائر، الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص203، 204.

[14] هي نظرية في التنشئة الاجتماعية تعود بداياتها للباحث الأمريكي **جورج جيربنر**، وتعدّ النظرية تصويرا تطبيقيا للأفكار الخاصّة بعمليات بناء المعاني والقيم، وتشكيل الحقائق الاجتماعية، والتعلّم من خلال الملاحظة، ظهرت في أواخر الستينات من القرن الماضي عندما شهد المجتمع الأمريكي فترات الاضطرابات بسبب انتشار مظاهر العنف والجريمة في أعقاب اغتيال **مارتن لوثركينج**، والرئيس **جون كيندي**، ثم تطوّرت لتشمل اكتساب المعرفة أو السلوك من خلال الوسيط الثقافي الذي يعيش فيه الإنسان. للاستزادة ينظر مرفت حسن برعي، تنشئة الطفل العربي، التراث والانتماء، ص33.

[15] عادل كمال خضر،2001، مفهوم الرمزية في التحليل النفسي، القاهرة، مجلّة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع 59، ص31

[16] Gilles Deleuze: Francis Bacon ou la logique de la sensation. Editions la différence 1996.p.46.

[17] ينظر: صالحي شريفة،2011، اليتيمان والبقرة، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ، صورة الغلاف الخارجي، وص29.

[18] مسعودة لعريط: قصص الأطفال في الجزائر، ص85.

[19] صالحي شريفة: اليتيمان والبقرة، ص30 .

[20] أمان الفرارجة : تأثير الألوان على نفسية الإنسان، على الرابط http://mawdoo3.com

[21] خالد محمد عبد الغني: سيكولوجية الألوان، ص29

[22] جوهر حيدر: 2012 بنت الهمّ، الجزائر، دار العلم والمعرفة، ص 11-15-18.

[23] نفسه: ص.26

[24] ينظر: شارل بيرو،2014، سندريلا، تر، خالد خادم السّروجي، الجزائر، مؤسسة البلاغ،ط3، ، ص3 وما بعدها.

[25] صالحي شريفة،(د ت)، الأسد والثور الأبيض، الجزائر، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر، ص 10.

[26] رجب بن محمد،2007، حكايات جحا، الجزائر، دار العلم والمعرفة، ص93.

27 رجب بن محمد: حكايات جحا، ص 10.

[28] ينظر: أمينة فزاري،2012: سيميائية الشخصية في تغريبة بني هلال، الجزائر، دار الكتاب الحديث،ص 25 .

[29] هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال، فلسفته فنونه ووسائطه، ص98.

[30] ينظر: جوهر حيدر، حديدوان وبما جيدا، ص23

[31] ينظر: جوهر حيدر، عاصفة آكلي، ص24 .

[32] ينظر: جوهر حيدر، مسلمون، ص24.

[33] توفيق الحكيم: ،1973، فنّ الأدب، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللّبناني، ص10.